

تداولية النادرة في البخلاء للجاحظ "ماء النخالة" أنموذجا

الدكتورة: آمال منصور

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

محمد خيضر - بسكرة

قال تعالى: ((و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)) الإسراء: الآية: 29.

استهلال:

لطالما كان الشعر ديوان العرب، و لطالما كانت القصيدة الجنس الأدبي الذي يعكس العبقرية العربية و يؤصل لها، فاستفحل فيه الفحول و نبغ في قراءته و تثمينه العقل النقدي، فطغى الشعر على الذوق و كان مرآة عصرهم و لسان حالهم.

لكن الشعر لم يكن المتن الثقافي الوحيد الذي يرمز للبراعة و التفوق الفني العربي، بل كانت هناك أشكال فنية تشاركه في الأهمية الموضوعية و في الجودة الفنية كالخطبة و المثل و الحكمة و النادرة، و لعل الجنس الأخير قد أخذ مكانة بين دقات كتب القدامى و سطا على آذانهم لما فيه من رؤى صائبة و وجهة نظر ثاقبة و موقف هزلي يروح على النفس و يترك مكانا في القلب لا ينسى.

و لعل الجاحظ كان من أهم كتاب العربية الذين أصلوا "للطرفة" أو "النادرة" و وضعوا لها القواعد(*)، و أطالوا عندها الوقوف لتصبح جنسا أدبيا له سطوته على الأذن العربية.

و النادرة أو الملحّة أو الطرافة» جنس أدبي مخصوص ينزع منزع الطرافة و الفكاهة و الضحك⁽¹⁾ في الظاهر، أما في باطنها فهي نقد اجتماعي يهدف إلى الإصلاح من خصائص أدب النوادر: الخفة و الظرف و يشترط في الفكاهي أن يكون صاحب ذكاء يجعله يبحث عن الحيلة و يتدبّر الخطط و ينسج خيوطها⁽²⁾.

كما أنّ أهم ميزة يبنى عليها فن النادرة في نظرنا هو قيمتها التواصلية، فهي دائماً تفترض وجود مخاطب بالفعل تتعامل معه على أنه كائن موجود يتفاعل مع موضوعها فينحاز إيجاباً معها، لأنها تصوغ الحقيقة و تدعمها بالبراهين و الحجج اللاذعة.

و ربّما -بذلك- تتحول أكثر جنس أدبي صالح لأن يكون متنا و مجالاً لمقاربة التداولية، و أداة حجاجية لا تختلف فيها اثنان.

لقد اختارت هذه الدراسة "البخلاء" للجاحظ مدوّنة لتطبيق آليات اللسانيات التداولية التي و لا شك أصبحت منها يقارب جميع النصوص، على الرغم من أنها اختارت نفسها للنصوص التواصلية العادية دون النصوص الفنيّة.

1- البنية الداخلية لخطاب النادرة:

لا يمكن حصر اللسانيات التداولية في "أوستن" أو "بيرس" أو "موريس"، فالجهود التي تضافرت لتأسيس صرحها متعددة و كثيرة، لا يمكن لهذه المقالة أن توفيقها حقها، فالتداولية تداوليات بدءاً من أرسطو و ماركس و سوسير و بيرلمان و باختين و أبوستيل و ديكر و اسكومبر و هابرماس و فريج و كرايس و هانسون.

فإذا كانت التداولية في أشمل تعريفاتها حسب "آن ماري ديلر" Anne Marie Diller و "فرانسواز ريكانتي" François Ricanti هي: «دراسة استعمال اللّغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية»⁽³⁾.

فهي لا تبحث في تراكيينا و تخضعها لميزان الخطأ و الصواب شأن النحو، لكنها تهتم بما نقوله أثناء التواصل فهي تهتم باللغة باعتبارها ظاهرة خطابية و تواصلية بحق.

و على هذا الأساس فهي تبث النفس مرة أخرى في المخطط الوظيفي لجاكسون، و تهتم بوظيفة التأثير، يتجلى هذا في فكرة "أوستين" عندما (ساوى بين بنية اللغة و بنية الفكر، في محاضراته التي نشرت عام 1962 بعد وفاته بعنوان "كيف ننجز أفعالا بالألفاظ"، فاللغة في مفهومه تتجاوز وظيفة التأثير، و تغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية)⁽⁴⁾.

لعلّ هذا التعريف ينطبق من بين تعريفات كثيرة- على نواذر الجاحظ في "البخلاء"، فعلى الرغم مما في الكتاب من طرافة و حيلة لطيفة، إلا أنه «إضاعة و تنوير»⁽⁵⁾، «هداية و تعمير»⁽⁶⁾، لذلك استعان "الجاحظ" باللغة- هو المحدث البارع و الناقد اللاذع⁽⁷⁾- فكانت ملاذه لتصوير آفة البخل و التأثير في متلقيه لنبذها.

و تصبح النادرة لديه جنسا تداوليا بامتياز بدءا بأفعال الكلام و حركيتها في الإقناع:

1-1- الأفعال الإنجازية و دورها في الإقناع:

إن نجاح الجاحظ في تحقيق قصد النادرة مرهون باستعماله الدقيق للغة، فاللغة مثلما شبهها "برتراند رسل" Bertrand Russell «بالمفجرات، بحكم أن إضافة أدنى عنصر يمكنه أن يتسبب في آثار خطيرة، فكروا إذن في كل تبعات تلفظ هتلر لكلمات "الحرب"»⁽⁸⁾.

إننا هنا نتبنى "أوستن" بأن «الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني، ليست هي الجملة بل هي استكمال إنجاز بعض أنماط الأفعال»⁽⁹⁾، فمثلاً التلفظ بفعل "اعتذر" "أكد" تغني عن جملة كاملة.

يتقصد الجاحظ في نواته شخصية البخيل فيروي على لسانه، فيعرض و يحل و يقدم الحجة البليغة المفيدة، لذلك أتت هذه الأحاديث متمفصلة إلى جزأين:

الأول: السند و هو سلسلة الرواة الذين ينقلون الخبر إما معاينة أو سماعاً⁽¹⁰⁾. فهنا يقول: قال أصحابنا من المسجدين: لكنه يفصل في أهل السند، و يبين سبب روايتهم لهذه النادرة أو تلك: «اجتمع ناس في المسجد، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة و التثمير للمال، من أصحاب الجمع و المنع، و قد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، و كالحلف الذي يجمع على التناصر. و كانوا إذا التقوا في حلقهم تذكروا هذا الباب، و تطارحوه و تدارسوه، التماساً للفائدة، و استمتاعاً بذكره»⁽¹¹⁾

أما الجزء الثاني هو المتن: و هو موضوع الخبر و إحدائه، و يقوم عادة على حيلة لطيفة بديعة قوامها المجاز و الإيجاز و بطلها بخيل من البخلاء⁽¹²⁾.

1-1-1- الأفعال المباشرة:

- **فعل القول (التلفظ):** ينسخ الجاحظ النادرة في قالب موجز حتى لا يتقل على سامعه و يضمن قوة التأثير و الفهم، و بجمل قصيرة تترك وقعها و أثرها في نفس المتلقي.
- **فعل الإسناد:** رغم أن الجاحظ يلبس قناع الشخصية البخيلة و يتحدث بلسانها، إلا أنه في الحقيقة يرمي إلى مشاركة متلقيه في معنى النادرة. لذلك هو يبليغهم بجميع المعلومات الكافية لتحقيق فهم أفضل للنادرة. **فعل الإنشاء:** قد يكون تأليف كتاب البخلاء -ككل- طلباً من أحد الأعيان، كما أورد ذلك المحقق د/محمد الاسكندراني، و استشهد يقول الجاحظ في مقدمته: «و أذكر لي نوادر البخلاء و احتجاج الأشعأ»، لكن عدم ذكر اسم هذا الطالب يدعونا إلى الشك، فقد يكون قد خطر له أن يجمع نكت البخلاء و لم يجد حجة لذلك.

فالنادرة التي بين أيدينا- تحديدا- فيها رسم دقيق لنفسية البخيل الذي يتقن اختراع الأعدار والمبررات ليجعل من النخالة زادا وحيدا له و لعياله:« لم لا تطبخين لعيالنا من كل غداة نخالة؟» فهي تغنيه عن كل شيء فهي تعصم البطن و تغني عن تناول شيء آخر في اليوم.

- **فعل التأثير:** تحقق النادرة غايتها على الرغم من أنها تبدو في ظاهرها قصة مسلية فهي تعكس ضيق الحياة و بؤسها.

كما أن الجاحظ لم يعرض أهداف نواتره صراحة إلا أن القارئ الفطن يكتشف كيف تهاوت القيم العربية الأصيلة المبنية على الكرم و العطاء لتحل محلها قيم جديدة لا عهد للعربي بها، لحساب جمع المال.

2- البنية الخارجية للخطاب: حوارية النص:

يتأصل الحجاج من روافد كثيرة أهمها خطابة أرسطو، لأنه انطلق من كون البلاغة(الخطابة) إنما هي «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع»⁽¹³⁾، و هذا الإقناع يتوقف على ثلاثة أركان هي: أخلاق السائل حجة(الاتيوس)، و تصيير السامع في حالة نفسية ما (الباتوس)، و القول نفسه من حيث أنه يثبت أو يبدو أنه يثبت. كما يتطابق هذا المفهوم مع وجهة نظر السوفسطائيين لأنها «صابغة إقناع»⁽¹⁴⁾.

و الحجاج في اللغة: الغلبة بالحجج، جاء في لسان العرب: حاججته أحاجه حجاجا و محاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها.

و في قوله تعالى((ألم تر الذي حاج إبراهيم في ربه))⁽¹⁵⁾، و قوله أيضا((فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم و قل تعالى ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين))⁽¹⁶⁾.

و الحقيقة أن القرآن خطاب حجاجي من الطراز الأول لكونه جاء ردا على خطابات تعتمد عقائد مختلفة عنه، لذلك اشتمل على جميع أنواع البراهين و الأدلة كما يقول الزركشي.

أما في النقد و البلاغة العربيين، فالجاحظ قد التفت للحجاج في أكثر من موضع، و وضع له تعريفاً جامعاً قال في كتابه "البيان و التبيين": قال بعض الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، و المعرفة بمواضع الفرصة⁽¹⁷⁾، و قال في موضع آخر: كان سهل بن هارون يقول: ((سياسة البلاغة أشد من البلاغة))⁽¹⁸⁾

أولى الجاحظ أهمية لمفهوم الحجاج و فصل فيه و مارسه بجميع أشكاله في مناظراته و رسائله فنثره غني بالتقنيات المؤسسة للحجاج، و ربما يأتي في النادرة بصورة مبسطة لطبيعة هذا الجنس.

2-2-2- مراحل التفاعل الحواري:

يقوم الحوار في هذه النادرة على أربعة مراحل أساسية:

2-2-2-1- مرحلة الافتتاح أو البدء:

هي بمثابة تمهيد و تقوم فيه بتبنيهِ المحاور و الإعلان عما سيأتي، ففيها نحدد محل النزاع⁽¹⁹⁾، و هنا تتأسس الحوارية في "ماء النخالة" على أطروحة بسيطة و هي: شكوى المرسل من داء السعال، و بالتالي عليه أن يجد لذلك علاجاً فعالاً. فهذه الأطروحة لا تتطلب اشتغال آليات المنطق و لا مبادئ الاستنتاج المنطقي، فيقدمها موجزة دون تعقيد ليضمن نجاح الحوار و الاستيلاء على أذن المتلقي.

2-2-2-2- مرحلة المواجهة:

فيها نعمل إلى عرض الأحداث و الوقائع. إنها مرحلة التساؤل مع إيجاد منفذ يكون ضرورياً للإعلان و الإخبار و مطابق لكل الالتزامات و التعهدات⁽²⁰⁾. تتميز هذه المرحلة بالإيجاز و الوضوح، حيث يعرض فيها الحلول التي أشار بها الناس عليه: «أمرني قوم بالفانيذ السكري، و أشار عليّ آخرون بالخزيرة. تتخذ من النشاستج. و السكر، و دهن اللوز، و أشباه ذلك»

لكن المرسل يقدم هذه الحلول بنوع من السطحية، و كأنه قرّر بدءاً أنّ هذه الحلول غير مناسبة و عليه البحث عن أخرى.

2-2-3- مرحلة التدليل و إقامة الحجة:

فيها نقوم ببسط أدلتنا و حججنا مدعين كنا أم معترضين⁽²¹⁾. فالجاحظ يعمل إلى تقمص شخصية البخيل في جميع نواتجه، و يتعمق فيها لدرجة أنه يعرف مبرراتها، ويفهم دواخلها بدقة، حتّى يخيل للمتلقّي أنه واحد منها، لذلك هو يتقن الاحتجاج، و يسوقه بأسلوب بديع يقول: « فاستنقلت المؤونة، و كرهت الكلفة، و رجوت العافية، فبينما أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموقنين: عليك بماء النخالة ، فاحسه حاراً، فحسوت، فإذا هو طيب جداً، و إذا هو يعصم جداً، فما جعت و لاشتتهيت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر. ثمّ ما فرغت من غدائي و غسل يديّ، حتّى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي، طويت العشاء و عرفت قصدي»⁽²²⁾

فالجاحظ استعان بالصياغة اللفظية ليستولي على سمع متلقيه، فوظف "التوازي"

في طرح مبرراته مثل:

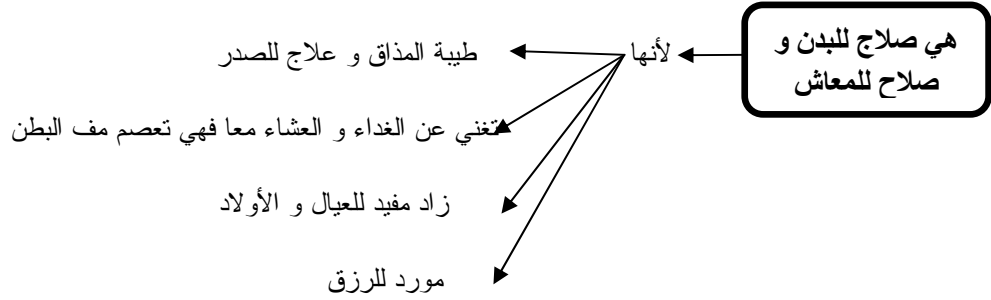
تمائل في المواقع	تمائل في الصيغ الصرفية
الكلفة	كرهت
العافية	رجوت

تطابق	تمائل في المواقع	تطابق
جدا	طيب	فإذا هو
جدا	يعصم	فإذا هو

تداولية النادرة في البخلاء للجاحظ" ماء النخالة" أنموذجاً. د/ آمال منصور
و بذلك حقق إيقاعاً سمعياً يجذب القارئ و يدفعه إلى البحث عن المعنى الباطن لهذه
الصياغة فلغة الجاحظ حمالة أوجه، تتنوع مقاصدها و تتشكل معانيها في سياق فني غير
أحادي النظرة.

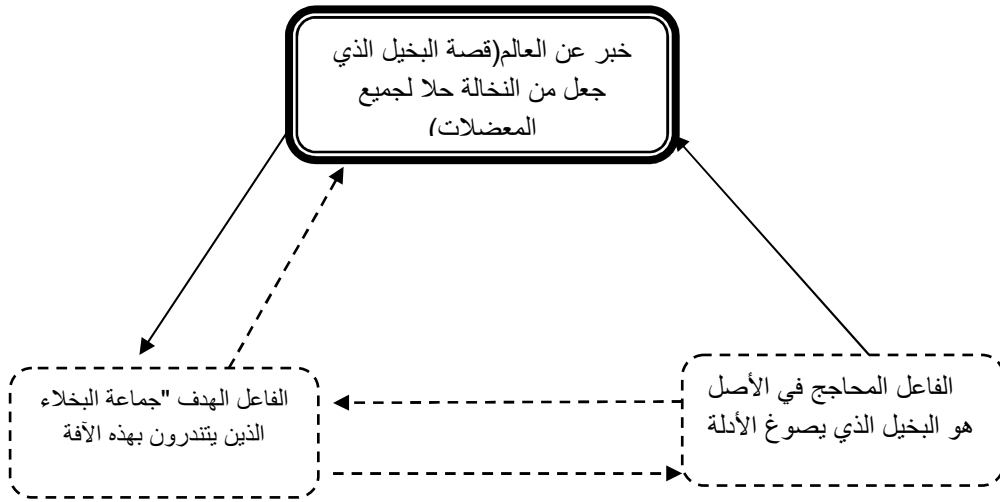
2-2-4 - مرحلة الختم أو الإغلاق:

ينتظر في هذه المرحلة أن تتحقق الأهداف المتوخاة من الحوار، و الجاحظ يمتلك
أصول الحوار و منطق الجدل، فلا يترك المتلقي يركز ملياً في سوء طبع البخيل، يقدر ما
يستحوذ على فكره و ابتسامته، بفضل الفكاهة الطريفة و الحجة الخفيفة، فالنخالة تحولت
عند هذا البخيل حلاً جيداً لجميع المعضلات:



2-3 - عناصر الجهاز الحجاجي في "ماء النخالة" و أساليبه:

إذا كان الحجاج - حسب باتريك شارودو- هو حاصل نصي عن توليف بين مكونات
مختلفة تتعلق بمقام ذي هدف إقناعي⁽²³⁾، فإن الحجاج لا يتحقق إلا وفق علاقة ثلاثية
حققتها الجاحظ في نادرته و أولاهها عناية بالغة:



إننا لو دققنا النظر في هذه "النادرة" و في غيرها من النوادر لرأينا أن الجاحظ ينطلق من إدراك غير مسبوق في قوانين التبدليل، فهو يؤسس في هذا النص على ما يسمى عند باتريك شارودو: **بالبحث التأثيري**، حيث يتجه نحو مقاسمة الطرف الآخر - هو قارئه بامتياز - نوعا من الكون القولبي و يستدرجه بأسلوب ساخر مؤثر إلى الأخذ بنفس الأقوال.

خلاصة (وجهة نظر):

لا تنهض هذه الدراسة على قاعدة لغوية بحتة بقدر ما تحاول أن تجمع شتات المعرفة البلاغية و التداولية و النقدية... فهي بالتأكيد تؤمن بمفهوم الحوار البناء الذي تأسس عليه الدرس العربي و الغربي القديم دون تمييز. لعلها محاولة بسيطة لولوج الكتابة القديمة لكشف سحرها و فنيها العالية. و يبقى الجاحظ متنا غنيا للبحث و الكشف و الكتابة دون نقاش.

الهوامش:

(*) مثل الأصمعي و الفقيه الحنبلي، ابن قتيبة، أبي حيان التوحيدي، ابن عبد ربه، الأبيشيبي.

- تداولية النادرة في البخلاء للجاحظ" ماء النخالة" أنموذجاً. د/ أمال منصور
- (1) عبد الواحد التهامي العلمي، تجنيس النادرة "بحث في المكونات و السمات"، عمان (مجلة ثقافية شهرية)، العدد 142، عمان ، الأردن، الصفحة: 67.
 - (2) سطور حول نوادر الجاحظ.
 - (3) فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، المغرب، 1986، الصفحة: 8 .
 - (4) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم) ، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، الصفحة: 53.
 - (5) عمرو بن بحر محبوب الجاحظ، البخلاء، محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، (كلمة المحقق)، الصفحة: 17.
 - (6) المرجع نفسه، الصفحة: 17.
 - (7) المرجع نفسه، الصفحة: 17.
 - (8) فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، ، الصفحة: 60.
 - (9) المرجع نفسه، الصفحة: 60.
 - (10) سطور حول نوادر الجاحظ.
 - (11) الجاحظ، البخلاء، الصفحة: 55، 56.
 - (12) سطور حول نوادر الجاحظ.
 - (13) نقلا عن: علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، الصفحة: 11.
 - (14) المرجع نفسه، الصفحة: 11.
 - (15) البقرة، الآية: 258.
 - (16) آل عمران، الآية: 61.
 - (17) عمرو بن بحر محبوب الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، الصفحة: 88.
 - (18) المرجع نفسه، الصفحة: 197.
 - (19) حسن الباهي، الحوار و منهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2004، الصفحة: 42.
 - (20) المرجع نفسه، الصفحة: 43.

- (21) المرجع نفسه، الصفحة: 43.
- (22) الجاحظ، الجلاء، الصفحة: 55،56.
- (23) باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية و التطبيق، عن كتاب نحو المعنى و المبنى، ترجمة أحمد الوردني دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، 2009، الصفحة: 16.